إسلام علي

كان علينا أن نستمع!

بدأ الأمر بفكرة "السياج الساخن" من عبقري العشيرة الشاب. حلقة من النار محدودة المدى والتأثير تحيط بأرض العشيرة، فتوفر لنا دفئًا لا بأس به في شهور الشتاء. كانت فكرة مجنونة لكنها آتت أُكُلها حقًا في الشتاء الأول. حتى حادثة الانفلات التي أدت إلى استحالة الغابة الشرقية بالكامل ركامًا متفحمًا، أُعتبرت خطأً يمكن تداركه في السنوات اللاحقة، وعمومًا الأهم أن الخطورة لم تمس أرض العشيرة نفسها؛ كان الأمر محكمًا جدًا من هذه الناحية.

ومع ارتفاع شعبية (وصوت) عبقري العشيرة الشاب، بدأت الأفكار المجنونة/ المفيدة تنهمر تباعًا، فتُنبت تطبيقات عملية يشرع في أدائها أهل العشيرة بحماس، ثم يسهرون في أسمار ممتعة، على أضواء النيران الدافئة، وألحان رياح اللاحفيف الآتية من الشرق في فصل الربيع.

¤¤¤

كان علينا أن نستمع..!

صارت أرض العشيرة أكثر تحضرًا وتنعمًا.. مخزوناتنا من الغلال واللحم تضاعفت. حافظنا على مناخ خاص معتدل في كل الفصول، وبسطنا نفوذنا أنحاءً وأمداءً، حتى صارت أرض العشيرة هي الأرض.. كل الأرض لنا!

العبقريُ الشابُ صار الحاكمَ الحكيم، وحافظ باقتدار على وعده الأول بإيجاد وتطبيق الحل لأي مشكلة تضايق العشيرة؛ حتى ذلك الهفيف الناحب الساري ليلًا في أطراف أرض العشيرة، ظل الحاكم

خلفه بنفسه شهورًا حتى أسكته بطريقة ما، وأرسى بذلك المزيد من الدعائم لعرش حكمه.

¤¤¤

كان علينا أن نستمع.. لكننا لم نفعل!

اليوم وقد عاد الهفيف زفيفًا مدويًا، وانتفض الحاكم والعشيرة عن المراقد فزعين. نقف جميعًا نشاهد النحيب يتمثّل في الغضب في أرهب صوره! تنانين عملاقة تتجسد من أشجار متفحمة وأشلاء حيوان ونبات، تنفث الأدخنة من كامل أجسادها، تطلق معها آلاف الصرخات الهائجة بأصوات الطبيعة مجتمعة!

سقط الحاكم الحكيم أرضًا على مرأى مني، كما سقطتُ وسقط الجميع، نتلوى من آلام آذاننا الدامية، نراقب بآخر ما تبقى من أسماعنا أرض العشيرة تتدمر عن بكرتنا، تستعيدها تنانين الطبيعة منا. ثم تذوي الأصوات عنا تدريجيًا، ومعها تذوي الروح والحياة.. ونحن نفقد ما لم نملكه، وما ملكناه فلم نستحقه.

¤¤¤

كان علينا.. أن نستمع!

¤¤¤